18me année No 870

Le Caire - 6 — 3 — 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ – عابدين – القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٧٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ٦ مارس سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

بين المهد واللحد

الكلمة التى ألقيت فى تأبين الأستاذ على محمود طه بالمنصورة

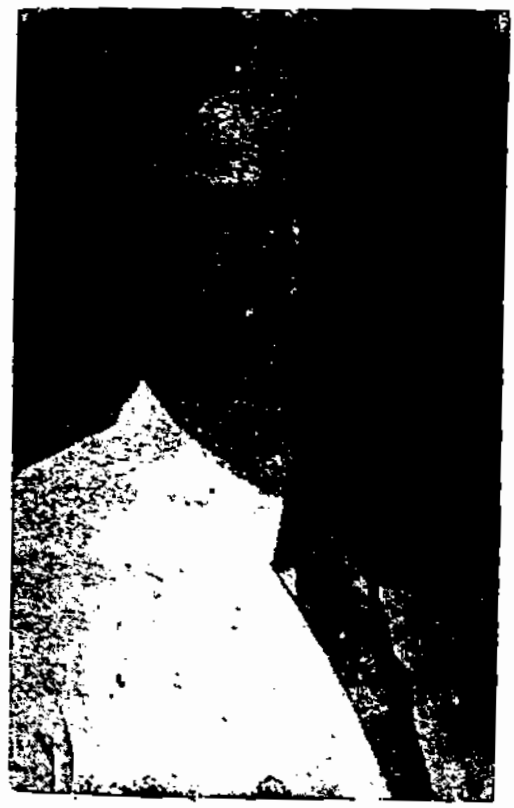

سادتى أقرباء على طه ، وأصدقاء على طه :

نحن هنا فى البلد الذى درج فيه إلى نور الوجود . ونحن هنا فى البلد الذى رجع فيه إلى ظلام العدم !

نحن هنا فى البلد الذى قدم إليه المهد مزيناً بأوراد الربيع ، مشرقا ببسمات الحب ، محفوفا ببشارات الأمل ؛ ونحن هنا فى البلد الذى أعد له اللحد مكللا بأزهار الخريف ، مبللا بعبرات الأسى ، مودعاً بحسرات الذكرى !

نحن هنا فى البلد الذى نشأ علياً على حب الجمال ، وهيأ علياً لرسالة الشعر ، ووجه علياً إلى طريق المجد . ونحن هنا فى البلد الذى خُتم فيه على القلب الشاعر ، وضُرب فيه على السمع الواعى ، وحكم فيه على اللسان البليغ !

من هذا الشاطىء شاطىء المنصورة ركب الملاح زورقه الهائم ، ثم مخر به العباب فى خضم الحياة . تارة يختفى ، وتارة يظهر . فاذا اختفى غاب مع (الأشباح والأرواح) فى جزر الأرخبيل أو على جبل الأولمب ؛ وإذا ظهر شوهد على سواحل كليوبطرة يردد اللوعة والأنين ، أو على جندول البندقية يرجّع الشوق والحنين ، أو فى بحيرة كومو يمجد الحب والجمال فى صور الناس ومجالى الطبيعة .

وكذلك كان فى كل بحر يجرى فيه ، وفى كل ساحل يدنو منه : يرسل الأنغام العذبة من قيثاره المرح ، ويبدع الصور الجميلة بريشته الفنانة ، وينفح الصدور المكروبة بنسماته الشعرية السحرية التى تُسرّى هموم النفس وتهوّن متاعب الحياة .

ثم غام الأفق فى وجه الملاح ، وثارت الأعاصير على جوانب الزورق ، فكلت المراح وسكن المجداف وتمزق الشراع . وفى يوم من الأيام السود ألقى فى ساحل المنصورة حطام الزورق وجثة الملاح !

وفى حفرة ضيقة من المقبرة المهمومة ثوى القلب الكبير ، وذوى الأمل النضر، وهمد الجناح المحلق !

فى هذا البلد الوفى الحبيب عرفت على طه وأحببته،عرفته منذ تسعة وعشرين عاماً وأحببته منذ عرفته . كان لقاؤنا الأول على هذه الضفاف الخضر فى أصيل يوم من أيام أغسطس من السنة الحادية والعشرين من هذا القرن . وكان على لا يزال طالباً بمدرسة الفنون والصناعات، يكابد ألم التناقض بين ما وجّه إليه بالفطرة، وما حُمل عليه بالاكتساب ؛ بين النوازع الأدبية التى يجدها فى نفسه والمسائل العلمية التى يتلقاها فى درسه ؛ بين الناس الذين يتخيلهم فى الذهن ، والناس الذين يتمثلهم فى الخارج ؛ بين مطالب الجسد التى تربطه بالأرض ، ونوازى الروح التى تجذبه إلى السماء .

كان يقضى طرفى نهاره فى قهوة ماتيو بشارع البحر ينظر فى كتاب مرة ، ويكتب فى ورقة مرة؛ ثم يذهل عن الكتاب والورقة ويرسل بصره إلى الأفق البعيد، ثم يرده إلى نفسه وينطوى عليها انطواء الفيلسوف المفكر أو الشاعر الحالم . فإذا جلس إليه أحد ثقاته أخذ ينفس عن صدره المكظوم بالحديث عمن يحب أو بالشعر فيمن يحب . وحبه يومئذ كان حب الفنان الخيالى يجعله بالتنزيه والحرمان منبعاً للألم ومبعثاً للشكوى ليرهف به شعوره ويُغذى عليه شعره .

قلت له ذات يوم : مابالك يا على وأنت فى زهرة العمر ونضرة الصبى حزين الشعر ضائقاً بالناس والحياة ؟ فهل تشكو من مرض ؟ فقال على،وما زلت أذكر ما قال : إنما أشكو مرض الاغتراب . يخيل إلى أنى من قوم آخرين ومن بلد آخر ، فأنا لا أزال أشتاق إلى القريب المجهول،وأحن إلى الوطن النازح . ويشتد بى النزوع أحياناً فأتمنى لو أطير . وأتوهم حين يخفق قلبى أنه طائر يريد أن ينهض ، وأن ضلوعى من حوله قفص يأبى أن ينفرج

ثم انقضى ذلك العهد وانقضت معه تلك الحال الغريبة. ودخل على فى زحمة الحياة وغمار المجتمع فأزهر الوجه الشاحب ، وانبسط المحيا الكئيب ، وابتسم الشعر الحزين ؛ وتشعبت فى نفسه أصول الجمال والحب ، فامتد فى نظره الجمال إلى العمل والخلق والسلوك ، واتسع فى قلبه الحب للخير والأخاء والمروءة . ولذلك عاش ما عاش فى سلام من نفسه، وعلى وئام مع الناس

وتأكدت بينى وبين على أسباب المودة فعرفته فى جميع حالاته ، وخبرته فى أكثر ملابساته،فلم أره يوماً قبض يده عن معروف ، ولا بسط لسانه بأذى ، ولا طوى صدره على ضغينة .

كانت لذته فى أن يفعل الخير لأنه إنسان بفطرته ، وكانت متعته فى أن يقول الشعر لأنه فنان بطبعه . وفيما عدا فعل الخير وقول الشعر كانت حياته أشبه بحياة الطائر الغرد فى سماء الربيع الطلق: انتقال من غزل إلى شدو ، وارتحال من جو إلى جو !

كان على طه أكرم الله مثواه طاغى الشخصية ولكنه طغيان الروح ؛ مستبداً بالحديث ولكنه استبداد النبوغ يجلس الجالس إليه ويطيل الجلوس ويكرره،ولكنه فى كل جلسة يجدد نفسه فى حضرة رجل ممتاز.وامتيازه كان من طلاوة حديثه وشجاعة رأيه وصراحة قوله وعفة لسانه وحرية ضميره وخلوص قلبه . كان فى صرامة الرجل ووداعة الطفل،فلا يسع من يلقاه إلا أن يجله ، ولا يملك من يعرفه إلا أن يحبه .

وكان شعره صورة لشخصه ومرآة لنفسه . تقرأه فكأنما تقرأ فى قلب مفتوح ، وتنظر فيه فكأنما تنظر فى أفق منير . أجل ما فيه الصدق ، وأقوى ما فيه الجمال ، وأعظم ما فيه الحب . والصدق والجمال والحب هى عناصر الرسالة الفنية التى أداها على طه.

كان شعره صافى الأسلوب لأنه صافى القلب ، متسق الألفاظ لأنه متسق الخلق ، مشرق المعنى لأنه مشرق النفس . وإن من المصائب التى يرفض لها الصبر ويضيق بها العزاء أن نستعمل (كان) فى الحديث عن على طه ! إنه باق ما بقيت العربية، مذكور ما ذكرت العروبة ، خالد ما خلد القرآن .

ولست اليوم بسبيل الكشف عن عبقريته فى فن الشعر ولا عن مكانته فى تاريخ الأدب ، إنما هى عبرات مما بقى فى المآقى جئت أسكبها على ثراه ، وزهرات من الروض الذى كان يحبه جئت أنثرها على قبره !

رحم الله الفقيد العزيز أوسع الرحمة ، وعزى عنه الأمة العربية أجل العزاء ،وعوض الأدب الرفيع من فقده خير العوض .

أحمد حسن الزيات